Coptology

عيد الظهور الإلهي للثالوث

د. جورج حبيب بباوي

يناير ٢٠١١

www.coptology.org

مُسحنا في يسوع لنكون مسيحيين، أي مُسحاء

الترتيب (الطقسي) الكنسي يُعلن سر الثالوث:

لعل أكبر خلل يصيب الحياة المسيحية الأرثوذكسية، هو أن تتحول رموز وترتيب الصلوات (الطقوس) إلى مؤثرات خارجية تُثير الذاكرة. هكذا كنا نسمع في جيلٍ لم يدرس الآباء: أن كل ما نراه ونشاهده في صلواتنا هو "لكي نتذكر".

لقد غاب من الوعي، ربما وعي بعض المعاصرين، أننا إزاء "سر الحضور الإلهي"، وأن هذا هو ما تشير إليه الطقوس؛ لأن الطقوس هي علامات تشير إلى ما هو كائن، وإن لم تكن في نفس الوقت هي ما يحرِّك "الذاكرة"، رغم أهمية هذا، لكنها هي تلك الشركة التي أُعطيت في أسرار الانضمام إلى الكنسية: المعمودية – المسحة – الإفخارستيا، أي الشركة في حياة الرب يسوع: تجسُّده، وموته وقيامته، وهي تلك الشركة التي ينقلها إلينا الروح القدس.

إن كل طقوسنا الكنسية مؤسَّسةٌ على أسرار الانضمام إلى الكنيسة، ولا يوجد طقس (ترتيب) إلاَّ وجذره الواضح هو: المعمودية – الميرون – الإفخارستيا. بالطبع، هذه دعوة تحتاج إلى إيضاح، ولكن في الوقت الحالي يكفي أن ندرك أن في المعمودية – الميرون قد سُلِّم إلينا رشم علامة الصليب – الإتجاه للشرق – الإعتراف بالايمان بعد جحد الشيطان.

وسُلِّم إلينا أيضاً أن رشم علامة الصليب قبل الصلاة، وفي أي مناسبة هي فاعلية سر المسحة، أي الميرون الذي به رُشمنا ٣٦ مرة على كل أعضاء جسدنا.

الترتيب (الطقسي) يُعلن سر الثالوث، ليس فقط بسبب الاعتراف بالإيمان، ولكن لأننا يجب أن ندرك ونستوعب حركة المحبة الإلهية:

أولاً: نزول الابن من السماء إلينا، وهي حركة التواضع الإلهي، تنازله عن المجد الإلهي: "أخلى ذاته وأخذ صورة العبد" (في ٢: ٦).

ثانياً: تأسيس عودة الإنسان إلى الآب فيه؛ لأنه "تجسَّد لأجل خلاصنا"، وذلك لكي يفتح باب الحياة الإلهية، أي باب الشركة لكي ندخل نحن منه؛ لأنه هو "الباب" (يوحنا ١٠: ٧)، وهو الطريق وهو القيامة، وهو مجد الإنسان الأبدي الذي لو تنازل عنه أي إنسان، لضاع منه المجد، وفقد كل شيء.

ثالثاً: حركة المحبة الإلهية في تنازل الإبن إلينا لكي يبقى معنا دائماً متجسداً (متى ٢٨: ٢٠). ولم يأتِ يسوع لكي يُعلم بالكلمة فقط، بل جاء بعطية الحياة الأبدية. فهو يتحرك دائماً نحونا مثل الراعي الصالح، هو دائماً يعطي ذاته في نداء محبته: "خذوا كلوا هذا هو جسدي"، هو يحل فينا لكي يحل الاب الحال فيه دائماً بلا انقطاع؛ لأن حياة الله لا تعرف الموت، ولا تقدر قوة أن تفصل الآب عن الابن.

هذا كله "لأجلنا"، وهو يُعطىَ لنا في محبة غير مشروطة، ولا تحددها الخطية الإنسانية التي جاء الابن لكي يشفيها ويحرر الإنسان منها ويجدد طبعنا.

رابعاً: عطاء المحبة هو من "الآب بالابن في الروح القدس"، وهي عبارة كررها القديس أثناسيوس في رسائله إلى سرابيون عن الروح القدس (راجع على سبيل المثال ١: ١٤). طبعاً الاحتفاظ بالثالوث هو حفظ لأساس المسيحية الإلهي، أي الثالوث الإله الحي الواحد المثلَّث المتحرِّك دائماً نحونا، الذي يأتي إلينا ويصنع عندنا مكان إقامته فينا حسب وعد الرب (يوحنا ١٤: ٢٣). فعندما يأتي إلينا الابن متجسداً، فهو وقد تجسِّد بالروح القدس، يُدخِل الروح القدس في شركة خلاصنا.

لا يجب أن نفكر بعقلية الانسان الغارق في ظنون "النرجسية"، وهي "الذات محور كل الأشياء وما عداها فراغ"، بل يجب أن يكون لدينا وعيٌ جديد، وهو أن الثالوث يعمل معاً، ليس بسبب نقصٍ أو بسبب ضعفٍ، وإنما لأن الثالوث هو "شركة المحبة" التي لا يعرفها الإنسان في الواقع. يعمل الآب بالابن لكي يعلن بنوة الابن، وبالتالي يعلن الابن أبوة الآب لنا. يعمل الابن في الروح القدس لكي يعطي لنا هبة المحبة الإلهية؛ لأن الروح هو روح المحبة (رو ٥: ٥)، وهو العطية المتبادلة بين الآب

والابن، والعطية هنا هي الاسم الأبدي للروح القدس (القديس أغسطينوس: الثالوث).

لكن العطية هنا هي شخصٌ، هي أقنوم الروح القدس. والعطية هي دواء للإنسانية التي لا تفهم أن "شر الخطية" هي تحوُّل الشخص إلى شيء، على مستوى الإنسان الخاطئ، وعلى مستوى علاقته بالآخرين. عندما قال الرب يسوع المسيح: "من نظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه" (مت ٥: ٢٨)، فهو يعلن كيف ينحط السلوك الإنسان بنظرة تشتهي ولا تعطي، تأخذ الآخر كشيء وتلعب به لأنه مجرد شيء. الذي رفع الإنسان من الفرد إلى الشخص هو عمل الثالوث واستعلان الآب فينا، ذلك الاستعلان الذي لا يُعطىَ بواسطة الآب بدون الابن، أو الابن بدون الروح القدس.

لقد جاء الابن بالشركة، وأسَّس هذه الشركة بتجسده، أي في إنسانيته، ولذلك مُسِحَ بالروح القدس؛ لكي – كما يقول أثناسيوس العظيم: "كنا نحن الذين مُسحنا فيه" (ضد الأريوسيين ١: ٤٧).

الخطأ اللغوي الذي دخل في ثقافتنا بسبب تعدد اللغات:

كانت اليونانية هي لغة العهد الجديد الذي تُرجم في عصرٍ مبكر، ربما في بداية القرن الثاني إلى القبطية. وتزامن استعمال اللغتين في مصر اليونانية ثم القبطية، ثم جاءت اللغة العربية وحدث خلطٌ مصدره اللغات الثلاث:

يمسحُ – مِسحةً – مُسحاء

الفعل χρίω – المسحة χρίσμα – المسيح χριστός

والفعل العبراني "م ش خ" يمسح، وقد استُخدم بوفرة في العهد القديم في مِسحة ملوك بني إسرائيل ورئيس الكهنة (أخبار ٢٩: ٢٢ – لاويين ٤: ٢، ٥، ١٦ – ٦: ١٥).

الاسم (م ش ي خ) استُعمل الاسم للملوك (٣٠ مرة) ووُصِفَ شاول بأنه "مسيح الرب" (١ صم ٢٤: ٧ – ٢٦: ٩ وغيره)، وانتقل الاسم من العبرانية إلى الترجمة السبعينية. وعندما مُسح يسوع بعد خروجه من الماء، صار "المسيح"، وهو ليس

"اسمُ شخصٍ"، بل هو اسم الوظيفة التي أخذها الرب يسوع. ولذلك، وعن المسيح بالنسبة لنا نحن يقول الرسول: "وَلكِنَّ الَّذِي يُثَبِّتُنَا مَعَكُمْ فِي الْمَسِيحِ، وَقَدْ مَسَحَنَا، هُوَ اللهُ الَّذِي خَتَمَنَا أَيْضًا، وَأَعْطَى عَرْبُونَ الرُّوحِ فِي قُلُوبِنَا" (٢ كو ١: ٢١ - ٢٢). فنحن نُمسح من الآب في الابن بالروح القدس (سرابيون ١: ٢٣، ٢٤) "النعمة التي من الآب هي واحدة، وهي تتم بالابن في الروح القدس" (سرابيون ١: ١٤ — ١: ٣٠).

كان الاسم القديم الذي عرفه الآباء هو مسحاء χριστοί وهي جمع χριστός أي كل منا صار "مسيح" لأنه إذا كان ملوك بني اسرائيل كل منهم صار "مسيحاً"، بل حتى كورش ملك فارس دعي "المسيح" و"الراعي" لأنه جاء لكي يهدم مملكة بابل، ولدينا شهادات كثيرة، لعل أقدمها هي شهادة العلامة أوريجينوس[١] (في شرح إنجيل يوحنا كتاب ٦١ - مجلد ١٤ عامود ٢١٢)، لكن الذي يهمنا هنا بالدرجة الأولى هو شرح الممارسة الليتورجية للقديس كيرلس الأورشليمي: "لقد صرتم شركاء المسيح وتدعون مسحاء *Christs* وعنكم قال الله لا تمسوا مسحائي" (مز ١٠٤: ١٥).

Μετοχοί ούν τού χριστού γενομενοί, χριστοί εικότως.

(عظة ٣: ٢ على السرائر) ويكرر نفس الإسم عندما يقول: "لقد دعيتم مسحاء *Christs* بقبولكم علامة الروح القدس".

Χριστοί δε γεγόνατε, τού αγιου πνευματος τό αντιτυπον.

(راجع أيضاً مثوديوس في Symp ٨: ٨) ومن المسحة أيضاً جاء اسم χριστοφόρος خريستوفوروس عند اغناطيوس الأنطاكي، أفسس ٩ - القديس أثناسيوس، ضد

---

(١) في شرح انجيل يوحنا كتاب ٦ فقرة ٤٠-٤١ "اسم المسيح يقال بصيغة المفرد، ولكنه أيضاً يقال بصيغة الجمع؛ لأن "المسيح حياتنا" (لم ترد في العهد الجديد، وإنما في أوشية الإنجيل) .. ولأن المسيح في كل قديس، ولأن المسيح واحد، يوجد مسحاء Christs وهم الذين يتشبهون به وقد كُوِّنوا من جديد حسب صورته أي صورة الله، ولذلك يقول الله بواسطة النبي لا تمسوا مسحائي Christs (مزمور ١٠٤: ١٥) (راجع سلسلة آباء الكنيسة مجلد ٨٠ شرح انجيل يوحنا ص ١٧٩-١٨٠).

الأريوسيين ٣: ٤٥ – كيرلس الأورشليمي، تعليم عن الأسرار ٢٢: ٣).

عيد الإسم الذي دُعينا به هو عيد معمودية الرب:

نحن نعيِّد عيداً له دلالة خاصة، فقد ظهر الثالوث القدوس: الآب ينادي الابن صاعداً من مياه الأردن، والروح نازلاً مثل حمامة. هو العيد الذي مُسحت فيه الإنسانية في يسوع، وأخذنا عطية مسحة الروح القدس "أمَّا أنتم فلكم مسحة من القدوس (١ يوحنا ٢: ٢٠)، المسحة التي تجعلنا نعترف بالمسيح يسوع الذي شاركنا إنسانيتنا لكي نشترك في مسحته، وهي حسب عبارة الرسول يوحنا "أمَّا أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه ثابتة فيكم ..." (١ يوحنا ٢: ٢٧).

اللقان واستعلان سر الثالوث:

تقديس المياه حسب التسليم الكنسي يعلن عمل الابن الكلمة خالق كل الأشياء في الخليقة التي خلقها هو، والتي صار الآن هو جزءٌ منها بسبب تجسُّده. فقد جاء إلى الخليقة لكي يجمعها معاً في وحدة واحدة تحت رأس واحد (أفسس ١: ٣ – ٦). هذا يجعلنا نرى البنية اللاهوتية *Theological Structure* للصلوات، فهي تبدأ بالخلق، ثم تدبير الخلاص بمجيء الرب يسوع، وحلول الروح القدس. هذا الترتيب نراه في قدَّاسات الإفخارستيا، وهو أمر له دلالة خاصة؛ لأن الليتورجية هي خدمة استعلان التدبير الالهي الذي لا يمكن فصله إلى خلق وخلاص، بل كلاهما معاً: الخلق والخلاص هما عمل واحد، بل لو تذكرنا أن الفعل العبراني كما ورد في سفر التكوين ١: ١ "في البدء خلق" هو "ب ر أ"، وهو يعني أيضاً خلَّص وفدى. وهذا هو معنى اسم الله "البارئ"، أي المخلِّص.

ولكي نترك العصر الوسيط تماماً علينا أن نطهِّر أفكارنا من ثلاثة أخطاء تراكمت:

أولاً: أننا إزاء قصة الخلاص.

ثانياً: أننا نتذكر عقلياً.

ثالثاً: أننا نحن الذي نستدعي الثالوث.

الأخطاء الثلاثة هي ثمرة الشرح العقلي غير الملتزم بالسر *Mystery* والسر هو استعلان الله الآب في ابنه يسوع المسيح، ومُعلَن ومُعطى بالروح القدس.

عندما تركنا البنية اللاهوتية المعلَنَة في يسوع المسيح، أصبحت ضرورة شرح الصلوات والطقوس تسوق العقل إلى الخيال وإلى استنباط واختراع شرحٍ ليس له علاقة بالايمان أي بالعقيدة، بل هو أحياناً ضد الأرثوذكسية.

هذا موضوع يحتاج إلى دراسة كاملة، ولكن المجال الآن هو أن ندرك أولاً أن البنية اللاهوتية أساسها في الاتحاد الأقنومي. والاتحاد الأقنومي غطَّاه تعليم العصر الوسيط بضباب كثيف، إذ دار الحوار كله بشكل دفاعي للابتعاد عن الأريوسية، والأوطاخية، والنسطورية. وترك المدافعون فاعليات الاتحاد الأقنومي، لأن أحد هذه الفاعليات هو الحضور المتجسد للابن، الذي بسبب تجسده، أصبح للماء، وتراب الأرض، ثمر الأرض مثل الحنطة والزيوت، والكون المادي نفسه دورٌ في فداء الإنسان؛ لأن المسيح جاء لفداء الكون، ولكي يعتق الخليقة كلها من عبودية الفساد، ويؤهِّل الكون إلى حياة جديدة تنسجم مع الحياة الجديدة التي تأتي مع قيامة الأجساد (راجع رو ٨: ١٩ – ٢٢).

في حوالي سنة ١١٠م، وربما بعد ذلك بقليل قال اغناطيوس الأنطاكي إن الرب اعتمد لكي بآلامه يطهِّر الماء. وكان الوعي الكنسي منفتحاً على انسكاب النعمة في الخلق الجديد. هذا الانسكاب الذي جمع كل عناصر الكون معاً، وهو ما نراه في المعجزات التي هي حسب اللغة اللاهوتية للعهد الجديد، وبالذات إنجيل القديس يوحنا هي علامات *Signs* تُعلن حياة الدهر الآتي التي سوف نراها بشكل كامل بعد القيامة. فالسير على الماء هو ردٌّ لسلطان الإنسان الذي فُقِدَ في آدم الأول (مزمور ٨). وإكثار الخبزات هو الشبع من الحضور الإلهي، وصيد السمك مثل السير على المياه، وكذلك إسكات الريح العاصفة. لكن انفرد آدم الثاني بما لا تملكه الطبيعة الإنسانية، تلك التي تُفتدى في اليوم الأخير، وهو أنه هو وحده الذي يرد الحياة، ويقيم الموتى، ويخلق من جديد، هذا هو عمل الله الكلمة الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح.

وخطر **الخطأ الثاني** هو الذكرى العقلية التي يجب إثارتها وإعادة "تشغيل" الذاكرة وشحنها من جديد بالطقوس والرموز.

السِّرُ ليس ذكرى عقلية، والطقوس ليست لجذب الانتباه، بل هي اكتشاف ما هو كائن وثابت في الحياة الالهية ومُعلن ومُعطي لنا في الابن بالروح القدس. **عندما نسمع القراءات أو الصلوات، فإننا لا ندخل مجال الحياة العقلية عن طريق السمع، والفهم، والذاكرة فقط**، هذا فعلاً يحدث، ولكننا ندخل مجال الحياة الالهية التي تنسكب في يسوع المسيح، رأس الكنيسة، الذي يجمع ويوحِّد ويغذِّي ويُحيي أعضاء جسده. وانشغال العقل الدائم بالحياة اليومية هو السبب الأول والأخير في استخدام الرموز، وترتيب الصلوات لكي ترتفع الروح وتدخل من جديد فيما تركته أثناء الانشغال بالأمور اليومية، ناهيك عن الآثار الضارة الجسيمة التي تتركها الخطية في الإدراك والتي تحتاج إلى شفاء وتطهير كي يعود الوعي والإدراك *Perception* إلى حقيقة الاتحاد بالله في يسوع المسيح.

وإذا دققنا النظر في **الخطأ الثالث** الذي يجعلنا نظن أن الرب يسوع ليس حاضراً معنا جسدياً، حتى يتحول الخبز والخمر باستدعاء الروح القدس، فإن هذا التعليم الفاسد يلغي الاتحاد الأقنومي تماماً؛ لأن الرب بعد تجسده وحتى صعوده لا يمكن مطلقاً فصل اللاهوت عن الناسوت. هنا يجب أن نذكر القارئ بالآتي:

١– إن الاستدعاء ليس هو طلب الغائب، بل هو جواب الكنيسة على نداء الله لنا.

٢– والطلب هو عودة الوعي إلى ما أُعطي لنا، وهو ما لا يقبل التغيير أو الاستبدال.

٣– ولعل القارئ الذي يواظب على حضور الصلوات قد أدرك أن عبارات مثل: "أرسل علينا نعمة روحك القدوس" أو "ليحل روحك القدوس"، وغيرها، إنما هي عبارات **تقال لا من أجل انفتاح الوعي على صدق وأمانة مواعيد الله فقط**، بل أيضاً هي عبارات تقولها الكنيسة كلها، وهذا ظاهر من صيغة الجمع التي لا يمكن أن تصبح نداء الفرد. فالجماعة كلها تطلب وتسجد؛ لأن وليمة الملكوت قد أقامها الرب

يسوع، وهو يدعونا إليها، وهي وليمة لا يمكن أن نفهمها من خلال الشرح العقلي، بل من خلال مكونات السر الكنسي نفسه: الذي أسسه الرب نفسه، وثبَّته بالاتحاد الأقنومي، ويعلنه ويعطيه لنا بالروح القدس.

المناسبات الثلاثة الخاصة باللقان:

عيد معمودية الرب – خميس العهد وغسل الأرجل – عيد الآباء الرسل. وتلك الأعياد هي استعلانات الله لنا في يسوع المسيح. ونشير هنا إلى أن الأب متى المسكين كان قد نبش الآبار التي ردمها العصر الوسيط في مجموعة مقالات فاخرة نُشرت بعنوان: "أعياد الظهور الإلهي".

نحن نقدس الماء ليس لأن الماء نجسٌ، ولا لأنه شرٌ، بل لأن التقديس كما نفهمه من شرح القديس كيرلس لإنجيل يوحنا وسائر المؤلفات الأخرى هو:

* "تخصيصٌ" مثل البكر فاتح الرحم الذي يدعى "قدوس"، أي مقدَّس لخدمة الرب في العهد القديم (خر ١٣: ٢ – عدد ٨: ١٦).

* "هو ما لا يمكن استخدامه خارج الصلاة وخدمة الله لنا" مثل ذبيحة الخطية التي تُدعى قدس أقداس (راجع لاويين ١٠: ١٧ – ١٤: ١٣).

* لكن جاء التجسد بتقديسٍ أعظم من التخصيص أو التكريس، وهو "أن يعطي الروح القدس نفسه من قداسته الإلهية للبشر"، وكل ما يخص الخلاص تقديساً ينقل الطبيعة المخلوقة إلى الحياة الإلهية لكي تُفتدى وتشترك في حياة الله، وهو ما تعبِّر عنه الصلوات: "انقلهما – قدِّسهما" عن الخبز والخمر؛ لأن دخول الحياة الالهية هو غاية تجسد الابن الذي باتحاد إلوهيته بالجسد الإنساني، فتح مجال تجلي *Transfiguration* أي تحول الهيئة والطبيعة إلى هيئة وطبيعة المسيح الانسانية التي نالت مجد الحياة الخالدة بالانتصار على الموت، وبسبب الاتحاد بأقنوم الله الكلمة.

هنا، وعند تقديس المياه في لقان عيد الغطاس بالذات نسمع عبارة: "القُدسات للقديسين"؛ لأن قوة الكلمة *Logos* قد انتشلت الخليقة القديمة، وقدَّستها وهيأت هذه الخليقة التي خضعت للفساد (رو ٨: ١٩)، والتي هي الآن مدعوةً لأن تذوق

حرية مجد أولاد الله (رو ٨: ٢١) إلى أن يكمل هذا في الدهر الآتي.

الآن تصبح المياه: "قُدسات" تعطي للإنسان أن يدخل مجال السر، أي سر حضور وحياة المسيح لكي يستنير ويتطهَّر. وهنا يجب أن استعير كلمة الأب متى المسكين المشهورة: "يتلامس" مع الحلول الإلهي الذي لا يمكن إخضاعه لمقاييس المنطق؛ لأن العلامات المنظورة مثل المياه لا يمكن فصلها أو حتى دراستها بمعزل عن:

- الملكوت السماوي الذي دخلناه بالمعمودية.
- الملكوت السماوي الذي نحيا فيه بمسحة الروح القدس في الميرون.
- الملكوت السماوي الذي نأكل فيه الخبز النازل من فوق من عند الآب السماوي (يوحنا ٦: ٥)، والذي يُرفع "مجداً وإكراماً للثالوث القدوس" في دورة الحمل.

المناسبات الثلاث هي: مسحة الروح في المعمودية في نهر الأردن، وبذل الرب ذاته كخادم، أو حسب لغة العهد الجديد "العبد" الذي يخدم ويغسل أرجل الضيوف، وهم السادة (في خميس العهد)، ثم في عيد الآباء الرسل، وهو عيد الحياة الرسولية التي تتشبه بالمسيح.

ولذلك، فالإشارة إلى غفران الخطايا ضرورية جداً، ويجب علينا أن نترك العصر الوسيط؛ لأن الغفران في العهد الجديد نفسه، وفي الليتورجية هو: الشفاء، والاستنارة، والتحرر من رباطات الخطية، وتجديد الحياة الداخلية، ورفع حكم الموت[1].

استرداد الوعي الأرثوذكسي بالطقوس:

ينقلنا الطقس عامةً دون الدخول في تفاصيل محددة (وهو ما سوف نفعله في مناسبة أخرى) إلى الوعي بالحضور الإلهي. نحن نأتي إلى الثالوث، نحن نقبل الدعوة، ولذلك الصلاة تقودنا من: الاستعداد إلى الاستنارة إلى التطهير، ثم إلى الاتحاد. هكذا

---

(١) سوف نعود إلى هذا الموضوع في أقرب فرصة حسب نعمة الرب يسوع.

سلَّم لنا الأريوباغي في كتابين: "رئاسة الكهنوت" و"الرئاسة السماوية" مراحل انتقال الوعي وانفتاح القلب على السر الإلهي على أنه يسير من الاستنارة إلى التطهير إلى الاتحاد. يدعِّم ذلك حلول الروح القدس – تقريباً – في نهاية الخدمات، حيث ينقلنا التدبير إلى الشركة. وما يأتي بعد حلول الروح القدس هو صلوات وأواشي تدعونا إلى أنْ نرى أنَّ السر الإلهي ليس قاصراً علينا، بل هو من أجل سلامة الكل: الخدام – الجند – الكون بكل ما فيه من أشجار ونباتات ... الخ. هذه كلها مشتركة معنا في الخدمة، في انتظار الانعتاق من الفساد والعودة إلى مجد الحياة الجديدة في يسوع المسيح.

كل عام وأنتم بخير.

د. جورج حبيب بباوي